كتاب عن

تاليف السير أو تراجم الحياة فن قديم قدم الحياة نفسها ، فالنفس البشرية تساورها رغبة طبيعية في أن تترك للأجيال التالية سجلا لأمجادها وحياتها الحافلة • وقد وجدت ضمن آثار جميع الشعوب التى عرفت الكتابة لوحات تذكارية تسجل فتوحات الحكام الأقدمين وأعمالهم ، أما القبائل الجاهلية فقد خلدت سير أبطالها في شكل أساطير تحكى بطولاتهم تناقلتها الاجيال عبر الرواة ، وكان للعرب شان كبير في هذا المضمار كما هو معروف •

والى جانب هذه الرغبة البشرية الطبيعية في تخليد البطولات والأعمال الفذة ، فان الانسان تعاوده الرغبة في استرجاع الماضى ، والفخر بأسلافه أو قبيلته أو امته ، وهى رغبة لا تقتصر على عصر دون آخر وانما ظاهرة عامة في جميع العصور • ولقد وجد الناس في فن السير خير وسيلة لاشباع حنينهم الى الماضى •

حياة الملك فيصل

عرض
محمود سيد محمد

وقد تطورفن التراجم عبر العصور ، ولم يعد يقتصر على مجرد التسجيل للوقائع والاحداث ، ونشأت مدارس عديدة في هذا الفن منها ما يهتم بالتحليل النفسى أساسا ، ومنها ما يختار أحداثا بذاتها من حياة صاحب السيرة ليعطى صورة معينة ٠٠٠ الخ ٠ ولكن مهما اختلف الاسلوب الفنى لترجمة الحياة أو السيرة ، فلا بد لها من أن تكون أساسا « قصة حياة حقيقية » حسب التعريف الذى ساقته دائرة المعارف الامريكية ٠

غير أن الاعمال العظيمة عن سير الابطال والعظماء لا تظهر عادة الا بعد انقضاء حياتهم الحافلة بسنوات طويلة ، عندما تتكشف جوانب كانت خافية من هذه الحياة ويزاح الستار عن خفايا وأسرار ومواقف لا تعرف عادة وقت حدوثها ، وأيضا بعد أن يزول الحرج من الخوض في مسائل ومواقف قد تمس بعض الأحياء ٠٠٠ ومن هنا يمكننا أن نقول مطمئنين أن الدراسة الموضوعية الضافية لشخصية فيصل العظيم لم

تكتب بعد ، بل ولا ينبغى أن نتوقع صدق مثل هذه الدراسة في المستقبل المرئى ... انها دعوة مفتوحة ، بل وواجب وطنى ، لكل من عاصر كفاح فيصل في أى مرحلة من حياته الحافلة المجيدة ، أن يكتب ذكرياته أو مذكراته ، وأن يسجل ما قد يكون لديه من وثائق ، فتلك هى الاسس التى تبنى عليها دراسات الشخصية التاريخية ، وعلينا أن نقتنع بما لدينا الان على أى حال .

والكتاب الذى نعرض له في هذا المقام ، هو كتاب : « فيصل : ملك المملكة العربية السعودية » لمؤلفه جيرالد دى جورى صدر لأول مرة في عام ١٩٦٦ أى في أعقاب تولى فيصل عرش المملكة ـ أقرب ما يكون الى السيرة « التسجيلية » أو الموسوعية ، فهو يحشد من الحقائق والوقائع كل ما يراه مناسبا لتحقيق هدفه المحدود وهو تقديم صورة عن حياة فيصل وكفاحه وأعماله ، وخلفيات للقضايا التى كانت تجابه السياسة السعودية وقت صدور الكتاب . وقد سجل الكاتب اعتذاره سلفا عن أى تقصير في كتابه قد يكون مرجعه أنه يكتب عن سيرة رجل عظيم في حياته . ومع ذلك فلم يخل عرض دى جورى من اشارات ولمحات ، وان تكن عابرة ، فانهاتلقى بعض الضوء علىجوانب من شخصية الراحل العظيم ، ومواقف كان لها أثرها في تكوين شخصيته .

حقا ان الولد سر أبيه ... ولقد كان فيصل امتدادا طبيعيا لوالده العظيم الملك عبد العزيز ، وقد أخذ عنه كثيرا من الصفات وخاصة الصفات العقلية ، رغم أنه لم يكن له قوام أبيه الفارع ومنكباه العريضان ، ويوحى مظهره بالوداعة . ولكن الملك عبد العزيز ـ كما وصفه جرترود بيل (*) ـ كان يمثل طرازا تاريخيا من ساسة العرب ، وكذلك كان فيصل . واذا كانت روعة الانجازات التى خلفها فيصل تبهر الناظرين ، فان أبعاد عظمة فيصل ـ كامتداد لابيه ـ انما تتجلى فيالاذهان اذا تذكرنا ما كانت عليه حال الجزيرة العربية في مطلع هذا القرن . وقد استهل دى جورى كتابه بخلفية عن حال الجزيرة العربية ابان مولد فيصل عام ١٩٠٥ ... كانت بلادا يكتنفها الغموض ولا يعرف العالم الخارجى (وهو يعنى بذلك العالم الغربى بالطبع) عنها شيئا تقريبا ، فلم يزرها أحد من الرحالة الغربيين قبل عام ١٨١٥ ، بل ولم يزد عدد الرحالة الذين زاروها طوال القرن التاسع عشر عن ثلاثة .

ولكن اذا كان العالم الخارجى لا يعرف عن الجزيرة العربية شيئا في ذلك العهد فلم يكن العكس صحيحا ، لان أبناء الجزيرة وصلوا في معاملاتهم التجارية حتى جزر الهند الشرقية وشرق أفريقيا ، وكانوا يتركون في موانى تلك المناطق وكلاء لهم من

(*) مقدمة المؤلف .
(*) Jetude fsell, the ftralr war, the golden bockorel pres, 19ko

بعض أقاربهم ، وفضلا عن ذلك كانت قوافل التجار والحجيج تخترق الجزيرة طولا وعرضا .

وكان عبد العزيز قد تمكن من استعادة الرياض قبل مولد فيصل بثلاثة أعوام ، ولم تكن العاصمة السعودية الصغيرة في ذلك العهد لتزيد عن كونها قرية محصنة محاطة بالاسوار يسكنها بضعة آلاف يزيدون عددا بين الحين والاخر كلما حلت بالمدينة بعض القوافل أو نزح اليها بعض البدو .

أما على المستوى الدولى فقد عقد في نفس العام الذى ولد فيه فيصل صلح بورتسموث بعد هزيمة الامبراطورية الروسية ـ احدى الدول العظمى حينذاك ـ على يد اليابان الدولة الشرقية ... وكان التساؤل الملح هو كيف استطاعت دولة شرقية أن تنفض عن نفسها سبات التخلف وتتغير خلال سنوات قلائل بدرجة مكنتها من هزيمة احدى الدول العظمى ؟! حقا انها سابقة تاريخية ـ والقياس مع الفارق ـ ولكن هل كان يدور في خلد أحد في تلك الايام أن الطفل الذى ولد في ذلك العام لحاكم لم يتوطد مركزه بعد ، وكانت موارده المالية ضئيلة ، وهو الطفل الثالث في أسرة كبيرة العدد ـ سوف يصبح بعد ستين عاما ملكا على بلاد تمتد رقعتها من البحر الى البحر وتشمل كل أنحاء شبه الجزيرة العربية تقريبا ، وتعتبر من زاوية معينة أغنى من معظم بلاد العالم ؟!

وعن تنشئة فيصل يشير دى جورى الى أنه قد تشبع في طفولته بروح نجد وتقاليدها الاصيلة، ولنقرأ كيف كان عبد العزيز يربى أبناءه في حديثه لامين الريحانى « اننا نعود أنفسنا على تحمل المشاق ، فنحن نجابه كثيرا من الأهوال والصعاب ، فهذا هو حال بلادنا ، وأسلوب حياتنا وقدرنا ، وكلها تعنى نفس الشيء . يجب أن نكون مستعدين دائما . انني أعود أبنائى على أن يمشوا حفاة ، وأن يستيقظوا قبل الفجر بساعتين ، وأن يكتفوا بالقليل من الطعام ، ويجب أن يتعلم الواحد منهم كيف يمتطى صهوة جواده غير مسرج ، ففى بعض الاحيان لا يتسع أمامنا الوقت لسرج الفرس ، ولا يملك الواحد منا الا أن يمتطى صهوة جواده وينطلق ... هذه هى نجد ، وروح نجد ، وطريقة الحياة في نجد »

واذا كان فيصل قد عاش طفلا في كنف جده لامه العلامة الجليل الذى لقنه القرآن والحديث عن ظهر قلب حتى قبل أن يجيد القراءة ، ثم تعلم صبيا ركوب الخيل واستعمال السلاح وفنون الصحراء من رفاقه الاكبر سنا والذين اختيروا خصيصا لهذا الغرض ، فانه قد تلقى عن والده العظيم علما آخر ماكان له أن يحصله من مصدر آخر ذلك هو فن الحكم والسياسة وكيفية معاملة الناس ، انه فن يختلف عما كان يتعلمه من غيره من الرجال ، ولقد تشرب فيصل هذا العلم من والده دون وعى بالطبع ، فتعلم منه ضبط النفس والصبر والروية والحذر ، كما أخذ عنه اعتزازه بعروبته .

كان فيصل يردد دائما أنه تعلم السياسة عن والده ، وكان عبد العزيز يقول عنه

بنفس اليقين ، أن معرفة فيصل ودرايته بشئون البدو لا ينافسه فيها أحد ، ويجب ألا ننسى أن هذا القول صادر عن عبد العزيز وهو خير من عرف البدو الذين عاش معهم قبل استيلائه على الرياض ، والذى تبلورت على يديه فكرة توطين البدو ، التى اصبحت أساسا لعظمة مملكته فيما بعد ، ومن هنا حرص دى جورى على ربط سياسة فيصل بأصولها الأولى على عهد أبيه ·

ورأى فيصل أثناء احتلال الحجاز كيف استطاع عبد العزيز أن يحافظ على مقدسات الاسلام وينهى الحرب دون قتال يذكر ببراعة ودهاء يندر أن تجدهما الا في عظماء الساسة · وعاش فيصل كفاح والده وانتصاراته ورأى كيف تمكن من استعادة وطنه وكون منه مملكة عظيمة ، وأصبح قوة لا تقهر من خلال تمسكه بالصبر واجتذاب الآخرين اليه ، وحرصه على الاستفسار عن دقائق الامور ، والتفكر في حلول المشكلات ، وتدبر جميع العوامل التى توصله الى الحل ، واعتماده على الاسلام شرعة ومنهاجا ، وقدرته على التصرف السريع عندما يحزم أمره ، وعندما يحين الوقت المناسب ، وفوق ذلك كله تعلم منه أن ينتظر صابرا الى أن يخطىء خصومه أو تتفكك صفوفهم ·

وكما عاش فيصل كفاح أبيه في داخل بلاده وشارك فيه ، فانه قد عاصر وعايش أحداث العالم الكبرى التى شكلت خريطة العالم المعاصر · وقد بدأت صلته بالعالم الخارجى في وقت مبكر وهو لم يزل صبيا في الرابعة عشر عندما أوفده والده الى انجلترا ـ رغم أنه لم يكن اكبر أبنائه ـ في زيارة هدفها الظاهرى تقديم التهانى بمناسبة انتصار الحلفاء ، وغرضها الحقيقى بحث المشكلات المعلقة مع الحكومة البريطانية ـ وكما وقع عليه اختياره للذهاب الى انجلترا لاول مرة في١٩١٩ ، كذلك اختاره هو وشقيقه (الامير) خالد لزيارة أمريكا لاول مرة في ١٩٤٢ جريا على عادته في ايفاد فيصل الى الخارج لشرح وجهة نظره واجراء اتصالات مباشرة مع الحكومات الاجنبية · كان عبد العزيز يعلم من شخصية ابنه ومقدرته ثم من رحلاته الى أوربا وأمريكا انه قادر على الامساك بزمام الامور ·· واذا أردنا أن نعرف رأى عبد العزيز في ابنه فيصل فلنقرأ ما قاله لاحد مستشاريه ذات يوم من عام ١٩٤٥ ··· «كم كنت أتمنى لو أن لى ثلاثة أبناء مثل فيصل ·»

وتمضى فصول الكتاب مع رحلات فيصل الىالدول الاوربية وأمريكا أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها · وقد قابل فيصل خلال هذه الرحلات وخلال الفترة التى تولى فيها رئاسة وفد بلاده لدى الامم المتحدة كثيرا من الرؤساء والقادة والزعماء والىجانب القادة الذين التقىبهم خارج بلاده ، فقد التقى بكثير من الحكام والرؤساء الذين كانوا يفدون الى بلاده للحج أو الزيارة · ويمكن القول أنه لم يتح لزعيم آخر

□ لقد كانت المملكة العربية السعودية احدى سبع دول وقعت علىميثاق انشاء جامعة الدول العربية٠ والصورة للملك الشهيد فيصل بن عبد العزيز والى يمينه الاستاذ عبد الرحمن عزام اول امين عام للجامعة العربية ٠٠ □

أن يجتمع بنفس العدد منزعماء العالم وقادته الذين اجتمع بهم فيصل ، ربما باستثناء دوق أدنبره ، في رأى دى جورى ، وله عذره في هذا الاستثناء لان كتابه توقف عند عام ١٩٦٦ ٠

غير أن دى جورى لا يتعرض لرأى فيصل في هؤلاء الزعماء الذين التقى بهم أو لعلاقته معهم ، باستثناء وقفة عابرة عند اتصالاته بالرئيس روزفلت وخليفته الرئيس ترومان بصدد القضية الفلسطينية ٠ كان الملك عبد العزيز قد حصل من الرئيس روزفلت على وعد بانه لن يؤيد اليهود ضد العرب ، وكان عبد العزيز وفيصل يعتقدان أنه لو امتد الاجل بروزفلت لما اتجهت السياسة الامريكية الوجهة التى اتجهت اليها في عهد خلفه ٠ ولقد كان للتغيير الذى أحدثه الرئيس ترومان في سياسة بلاده ازاء العرب أعمق الاثر في نفس فيصل ٠٠٠ كان فيصل في ١٩٤٧ ناطقا بلسان الوفود العربية في الامم المتحدة ، وعندما أعطى ترومان موافقته الفجائية على انشاء دولة يهودية في أعقاب محادثاته مع الدكتور وايزمان خلافا للتاكيدات التى تلقاها فيصل من المسئولين الامريكيين ، فقد شعر فيصل ان الهزيمة التى منيت بها القضية

العربية لم تكن صدمة سياسية فحسب ، وانما كانت اهانة شخصية له أيضا ، لم يستطع أن يغتفرها بسبب الطريقة التى تمت بها ، فقد شعر فيصل أن رجلا يفعل ما فعله ترومان لا يمكن أن يدرك أبعاد فعلته ونتائجها ، فلم يبد عليه أنه قد فعل شيئا ضد العرب ، بل انه ثار على وزارة خارجيته لانها لم تلاحق التغيير الذى طرأ على سياسته منذ البداية خوفا من أن يظن به الدكتور وايزمان الظنون • ويعلق دى جورى على هذه الواقعة فيقول أنها جعلت فيصل يعزف عن المجتمع الدولى بصفة عامة لفترة طويلة كما أصبح يشك في الحكومة الامريكية •• لقد بذل كل ما في وسعه ، ولكنه فشل لا لخطأ منه ، وانما لانه وضع ثقته في الرئيس الامريكى والحكومة الامريكية •

ونتلمس من ثنايا فصول الكتاب بعض الشواهد على شخصية الملك فيصل غير الرسمية ، أوفيصل الانسان، فنجد أنه يجيد نظم الشعر ، وقد أورد دى جورى ترجمة للمقطع الاخير من قصيدة تتحدث عن أمجاد العرب نظمها فيصل في عام ١٩٣٣ ، ولم يسبق نشرها ، وهى محفوظة لدى سمو الامير عبد الله بن عبد الرحمن •

وعندما زار فيصل أمريكا لاول مرة برفقة (الامير) خالد عام ١٩٤٢ حدث ان أمضى الوفد أول ليلة عند وصولهم الى ميامى في منزل مستر تشارلس سيروكس أحد موظفى وزارة الخارجية الامريكية الذى كتب عن انطباعاته بعد تلك الزيارة فأبدى سرورا مقرونا بشىء من الدهشة لان (الامير) فيصل كان يتصرف بطريقة طبيعية للغاية ، ولان أسئلته كانت تنم عن ذكاء ورغبة في المعرفة ، فقد أبدى رغبته في تفقد المنزل وأخذ يوجه عديدا من الاسئلة وعندما جلسوا الى مائدة العشاء كان فيصل يخدم نفسه بنفسه ••• كان تكيفه مع الحياة الغربية شيئا يلفت النظر ، واذا كان المثل يقول « عندما تكون في روما ••• » فان فيصل • رغم تكيفه مع أسلوب الحياة الغربية بسهولة ويسر ـ قد أدهش الامريكيين بتمسكه بزيه العربى ومحافظته على الخلق العربى القويم مع أنه كان دائم التردد على الدول الغربية منذ عام ١٩١٩ •

وعندما وصل الوفد الى انجلترا بعد انتهاء زيارتهم لامريكا كانت الحرب العالمية الثانية على أشدها ، نشبت غارة جوية عنيفة بينما كان الركب يقترب من جنوب لندن في جو ملبد بالضباب ، وانفجرت قنبلة بالقرب منهم ، فأسرع بعض المرافقين يسألون (الاميرين) فيصل وخالدا هل يفضلان الالتجاء الى مخبأ قريب ، فرد الاميران بصوت واحد أنهما يفضلان الاستمرار والاتكال على الله تعالى •

وكان فيصل يؤمن بالاتصال المباشر بين الحاكم وشعبه ، فعندما أشار عليه البعض بأن يستخدم الاذاعة والتلفزيون في مخاطبة أبناء المنطقة الشرقية التى لا يعرفها قدر معرفته بالمنطقة الغربية كان جوابه •• « سوف أفعل ما هو خير من ذلك ، سوف أزور المنطقة وأتحدث الى أهلها مباشرة » •

وسوف يتنافس المؤرخون في تقييم الدور الذى لعبه فيصل في بناء المملكة وارساء قواعدها ، فتلك مهمة التاريخ ، ولكن ذلك لم يمنع دى جورى من أن يخوض في هذا المجال رغم أن كتابه لم يلحق بالسنوات العشرة الاخيرة من حياة فيصل ، فهو يشير الى أن الملك عبدالعزيز استبد به القلق فيأواخر أيامه منتأثير الحضارة الغربية الوافدة على بلاده وخاصة ما تثيره من فوضى واضطراب واغراء الناس على الانغماس في الترف المادى بدرجة لم يتمكن من فهمها أو التحكم فيها ، وهنا يبرز الدور الذى قام به فيصل فهو الذى أعاد الامور الى نصابها ، وأعاد الامة الى رشدها · كان فيصل يؤيد الاخذ بالحياة العصرية بخطى معتدلة ، ويدرك تمام الادراك ما ينبغى عمله ، كان يعرف أنه بحكم مركزه وتجارب حياته ، في وضع يسمح له بأن يواصل ما بداه والده ، وان يكن بأسلوب مختلف ودور مختلف · كان يشعر شعورا عميقا بمركزه كحاكم وكحام للمقدسات الاسلامية ، ويعرف أن أمواج الحياة الغربية تدق أبواب حقول البترول والمواقع الاخرى بالحاح ، ويعلم أنه اذا سمح لهذه الامواج بأن تنطلق عارمة فانها لن تبقى ولن تذر ، أما اذا تحكم فيها بالحرص الواجب ، فانها يمكن أن تحقق الخير العام لنمو البلاد ، وأن النمو يجب أن يكون طبيعيا سليما لا مفروضا ولا ممنوعا ·

ويروى دىجورى أن فيصل كان يرى أنشكل الادارة يجب أن يتغير ويتطور لكى يلائم الزمن والاحتياجات ، وكان يقولفيأحاديثه الخاصة أن الشيء الاساسى فيتنظيم خطط الاصلاح والتنمية وترتيب أولوياتها هو التاكد أولا من تأثير خطوة ما على خطوة أخرى ، وانك يجب أن تتجرد تماما عندما تقرر ما يتفق والمصلحة العامة ، وأن تحدد أيضا الى أى مدى يجب أن تسير ، وما هو الممكن ؟ والوقت المناسب والظروف المناسبة للاقدام على أى اجراء ، ولكن لا ينبغى أن تتخذ هذا الاجراء في وقت متأخر عما هو مفروض ، ومن حسن الحظ ـ كما قال فيصل ـ انه مما يسهل المهمة ان الشعب لديه الطموح للسير في طريق التقدم ، ولعله وهو يبدى هذه الملاحظة الاخيرة كان يعود بذاكرته الى ما قبل نصف قرن عند ما كانت الحياة في الجزيرة العربية لا تختلف كثيرا عما كانت عليه قبل ذلك بالف عام ، ومع ذلك ففى غضون سنوات قلائل ، أى منذ أن تولى فيصل رئاسة مجلس الوزراء في ١٩٥٨ ، تحقق ذلك العمل المجيد ، وحدثت تلك التغيرات الرائعة ·

كان فيصل واعيا بأبعاد دوره التاريخى كما يتضح من تصريح أدلى به لصحيفة الحياة البيروتية في أعقاب توليه العرش ، فقد ساله مندوب الصحيفة : ما الذى تعتقد أنه يجدر بالملك أو الحاكم أن يحققه حتى يحتل مكان الشرف في تاريخ أمته ؟ فكان جواب فيصل : في رايى أن خير ما يمكن لحاكم أن يفعله هو أن يصنع حياة أفضل لشعبه ومستقبلا أفضل لبلده · ويجب أن يكون عضوا نافعا في الامة البشرية ، وخادما مخلصا لامته ، ومرشدا حكيما في أوقات الشدة ·

اليس ذلك ما فعل ؟